

الأخر في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي

The other in the poetry of tramps in the pre-Islamic era

إعداد الباحثة/ بشاير صالح عبد الله حسين العنزي

ماجستير في الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، جمهورية مصر العربية

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى التعرف بظاهرة التصعلك، وحياة هؤلاء الصعاليك وأشعارهم، ذكر صفات الشعراء الصعاليك التي وردت على لسان العرب، عرض لعصر الصعاليك بين المجتمع، تعريف لثنائية (الأنا / الآخر) في المجتمع الجاهلي. من خلال الحديث عن صورة الآخر عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي وإبراز تجليات الآخر عند هذه الفئة المقهورة من خلال عرض واستقراء شعرها، وتوضح أهمية البحث من خلال عرض لظاهرة الآخر لدى الشعر الصعاليك حيث لم يكن الشعراء الصعاليك معارضين لشعائر قبائلهم وعاداتها وتقاليدها، معارضة مادية وفكرية، بقدر ما كانت معارضة فنية. وقد تميزت هذه المعارضة بخلق أسلوب شعري فريد عكس أثر العوامل البيئية التي عايشوها بشكل إبداعي تنوع من حيث موضوعاته وبنائه الفكرية. وقد اتضح أن العلاقة مع الآخر عند هذه الفئة اتسمت بالرفض، والتصادم، والتحايل والمماثلة تارة، وبإسقاط الرؤى تارة أخرى، كل ذلك دلل على مدى الحرمان والتهميش والإقصاء الذي كان يعيشه الأسود في المجتمع، ولكن تلك المحاولات والإسقاطات لم تؤت أكلها ولم تُجن ثمارها، وبقي الأسود بلا انتماء ويعاني التهميش والإقصاء. ومن خلال ذلك يمكن القول أن الآخر في شعر السود كان عاملاً رئيساً في توجيه رؤية الشاعر الأسود نحو رؤية خاصة اتسمت بالرفض والسخرية لكل ما اتصل بهذا المجتمع الذي قهره وجعله مشرداً كنبات قُطعت جذوره فاصفرت أوراقه وتدانت من ملامسة -أو لامست - البيئة الطبيعية القاسية بكل ما تحمل من لفحات وسموم ووعورة. نحو رؤية خاصة اتسمت بالرفض والسخرية لكل ما اتصل بهذا المجتمع.

الكلمات الدلالية: الصعاليك، الآخر، الجاهلي، العصبية القبلية

The other in the poetry of tramps in the pre-Islamic era

Abstract:

The research aims to define the phenomenon of tramping, the lives of these tramps and their poetry, mentioning the characteristics of the tramp poets that were mentioned in the tongue of the Arabs, a presentation of the era of tramps among society, and a definition of the duality (the ego / the other) in the pre-Islamic society. By talking about the image of the other among the tramp poets in the pre-Islamic era and highlighting the manifestations of the other in this oppressed group through the presentation and extrapolation of its poetry, the importance of the research becomes clear through a presentation of the phenomenon of the other in tramp poetry, where the tramp poets were not opposed to the rituals of their tribes, their customs and traditions, a material and intellectual opposition , as far as artistic opposition. This opposition was characterized by the creation of a unique poetic style that reflected the impact of the environmental factors that they experienced in a creative way, diversification in terms of its themes and intellectual structure. It became clear that the relationship with the other in this category was characterized by rejection, collision, deception and procrastination at times, and dropping visions at other times. Blacks have no affiliation and suffer marginalization and exclusion. Through this, it can be said that the other in black poetry was a major factor in directing the vision of the black poet towards a special vision that was characterized by rejection and cynicism of everything that contacted this society that subjugated it and made it homeless as a plant whose roots were cut off and its leaves turned yellow and defiled from touching - or touching - the harsh natural environment with all that Bear from blights and toxins and ruggedness. Towards a special vision characterized by rejection and ridicule of everything that contacted this society.

Keywords: Tramps, the other, pre-Islamic, Tribal nervousness

المقدمة:

يشكل الحديث عن الآخر عند الشاعر الجاهلي جزءاً من حديثه ونظرته إلى ذاته إذ الآخر حال في المجال الوجودي لهويته، فيمثل بمفارقة موضوع إغراء له، أو منعاً للحبوة والحذر منه ومن خلاله نستطيع إدراك مدى اعتراف الإنسان العربي بهذا الآخر والنهل من منجرة الحضاري.

وموضوع الآخر من الموضوعات التي شقت طريقها في الدراسات النفسية والاجتماعية ولم يحظ بالاهتمام في الأدب القديم، وإنما جاء الحديث عنه من خلال التطرق إلى علاقة العرب بالأمم الأخرى.

أما التساؤل الذي يطرحه هذا البحث فهو عن مدى حضور الآخر في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي وإبراز تجليات الآخر عند هذه الفئة المقهورة من خلال عرض واستقراء شعرها، وقد اتضح أن العلاقة مع الآخر عند هذه الفئة اتسمت بالرفض، والتصادم، والتحايل والمماثلة تارة، وبإسقاط الرؤى تارة أخرى، كل ذلك دلل على مدى الحرمان والتهميش والإقصاء الذي كان يعيشه الأسود في المجتمع، ولكن تلك المحاولات والإسقاطات لم تؤت أكلها ولم تُجَن ثمارها، وبقي الأسود بلا انتماء ويعاني التهميش والإقصاء. ومن خلال ذلك يمكن القول أن الآخر في العصر الجاهلي عند شعراء الصعاليك كان عاملاً رئيساً في توجيه رؤية الشاعر أن هذه الدراسة الموسومة ب(الآخر عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي) تهدف إلى إبراز تجليات الآخر عند هذه الفئة المقهورة من خلال عرض واستقراء شعرها، وقد اتضح أن العلاقة مع الآخر عند هذه الفئة اتسمت بالرفض، والتصادم، والتحايل والمماثلة تارة، وبإسقاط الرؤى تارة أخرى، كل ذلك دلل على مدى الحرمان والتهميش والإقصاء الذي كان يعيشه الأسود في المجتمع، ولكن تلك المحاولات والإسقاطات لم تؤت أكلها ولم تُجَن ثمارها، وبقي الأسود بلا انتماء ويعاني التهميش والإقصاء. ومن خلال ذلك يمكن القول أن الآخر في شعر السود كان عاملاً رئيساً في توجيه رؤية الشاعر الأسود نحو رؤية خاصة اتسمت بالرفض والسخرية لكل ما اتصل بهذا المجتمع الذي قهره وجعله مشرداً كنبات قُطعت جذوره فاصفرت أوراقه وتدانت من ملامسة -أو لامست - البيئة الطبيعية القاسية بكل ما تحمل من لفحات وسموم ووعورة. نحو رؤية خاصة اتسمت بالرفض والسخرية لكل ما اتصل بهذا المجتمع الذي قهره وجعله مشرداً كنبات قُطعت جذوره فاصفرت أوراقه وتدانت من ملامسة -أو لامست - البيئة الطبيعية القاسية بكل ما تحمل من لفحات وسموم ووعورة.

أهمية البحث:

تتضح أهمية البحث من خلال عرض لظاهرة الآخر لدى الشعر الصعاليك حيث لم يكن الشعراء الصعاليك معارضين لشعائر قبائلهم وعاداتها وتقاليدها، معارضة مادية وفكرية، بقدر ما كانت معارضة فنية. وقد تميزت هذه المعارضة بخلق أسلوب شعري فريد عكس أثر العوامل البيئية التي عايشوها بشكل إبداعي تنوع من حيث موضوعاته وبنيتها الفكرية.

أهداف البحث:

- 1- التعرف بظاهرة التصعلك.
- 2- حياة هؤلاء الصعاليك وأشعارهم.

- 3- صفات الشعراء الصعاليك التي وردت على لسان العرب
- 4- عرض لعصر الصعاليك بين المجتمع.
- 5- تعريف لثنائية (الأنا / الآخر) في المجتمع الجاهلي.

منهج البحث:

تم استخدام المنهج التاريخي واعتمدت أكثر على المنهج التحليلي

التمهيد:

عرف العصر الجاهلي ظاهرة التصعلك¹ وربما قابل لفظ الصعلوك، باللص والذئب والقاتك والخليج، كل حسب الاستعمال، ولا ننسى أن لبعضها حظاً من التداول والانتشار دون البعض الآخر، ولعل الجامع المشترك بين هذه الالفاظ المترادفة وجهان :-

- اللصوصية والسلوك العدوانى والسلب.
- (الوجه الخفي) الجرأة والاقدام على الشجاعة.

فقد عرفت لفظ الصعلكة على مستوى الحياة اليومية العادية، حيث مارس الصعاليك ألواناً من التهجم والإغارة والنهب، وقد بلغ عدد من أدركته حرفه الشعر وابداعه من الصعاليك في الجاهلية حسب ما أورده المصادر الأساسية والمراجع المعاصرة اثني عشر شاعراً هم:-

1. الشنفرى الأزدي.
2. تأبط شراً
3. عروة بن الورد....
4. السليك بن السلكة السعدي.
5. مالك بن حريم
6. صخر الغي الهذلي
7. حبيب الاعلم الهذلي
8. حاجز بن عوف الازدى
9. عمرو بن عملان المعروف
10. قيس بن منقذ
11. حيدر بن ضبيعه
12. عمرو بن براق

1 اللسان والقاموس المحيط مادتي (صعلك) و(ذاب)

اعتقد الجاهليون بالإنسان ذاتاً واحدة، فهو الموجود المفقود، وهو الحي الميت، من غير تجزئته، فإذا ما فني كانت النهاية، إذ لا وجود لروح مخلدة، أو نفس أما عن تركيبية الذات البشرية لديهم، فهي – كما رأي د/ جواد على مبنية على حقيقة " أن الانسان من جسد هو الجسم، أي مادة، ومن شيء لطيف ليس بمادة هو الروح أو النفس، وهما مصدر القوة المدركة في الانسان، ومصدر الحياة، وأن بانفصالهما عن الجسد، أو بانفصال الجسد عنهما يقع الموت ¹

لقد رأي الصعاليك في الجسد نافذه إلى الاحساس بالذات، لأنهم عاشوا الحياة عبر الجسد، وأهينوا من خلاله، وعذبوا، فكان هو عنوان النفس ومرآيتها " فالصعاليك بفئاتهم أجمع. الأغنياء والفقراء والخلفاء والمتمردون – مزيج اجتماعي يحيطه سياج من الفقر والفقير والحرمان والبحث عن الذات، يجمعهم نشيد واحد وصوت واحد، هو صوت الخلاص والحرية ²

يشكل الحديث عن الآخر عند الشاعر الجاهلي جزءاً من حديثه ونظرته إلى ذاته، إذا الآخر حال في المجال الوجودي بهويته، فيشمل بمفارقتة موضوع إغراء له، أو منعاً للحبيطة والحذر منها ومن خلاله نستطيع إدراك مدى اعتراف الانسان العربي بهذا الآخر، والنهل من منجزه الحضاري وكذلك نلمس نظرتة السلبية إلى هذا الآخر باعتباره ضداً ونقيضاً، وهل مجد الشاعر الجاهلي ذاته؟

ولابد هنا من الإشارة لزاماً إلى الكتب السابقة التي تناولت حياة هؤلاء الصعاليك وأشعارهم وتعود الريادة في هذا البحث إلى " الاستاذ يوسف خليفه في كتابه " الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي وقد ناقش خليفة أولاً تعريف الصعلكة ثم الاسباب التي ادت الي نشأتها جغرافية واجتماعية واقتصادية ثم تعرض الي الموضوعات التي تطرق لها الصعاليك كأحاديث المغامرات والمراقبة ووصف الاسلحة وغيرها وتناول بعد ذلك الظواهر الفنية في أشعارهم والتخلص من المقدمات الطللية في أشعارهم وغير ذلك ثم ختم كتابه بدراسة لشخصيتين من الصعاليك هما عروة بن الورد والشنفري دراسة اجتماعية وفنية ³

المبحث الأول الصعاليك بين المجتمع والصعاليك العصر والمجتمع

لا تعني بالعصر الجاهلي كل ما سبق الإسلام، بل نعني العصر الأدبي الجاهلي من حيث التاريخ والزمان، الذي ذهب مؤرخو الأدب المحدثون إلى أنه يعود إلى ما قبل ظهور الإسلام بزمان يقدر ظناً بمئة وخمسين عاماً إلى منتهي عام، أخذاً من قول الجاحظ⁴. فهذا العصر هو الذي يتناوله مؤرخو الأدب بالدراسة، وهو الذي نسب إليه (الجاهلية وكل ما نسب إليها وهو الذي توافرت لنا أخباره والروايات عنه، شعراً ونثراً

1 لغة الجسد في اشعار الصعاليك د/ غيثاء قادرة، سلسلة الدراسات (1) 2013 م، ص 25

2 المرجع السابق ص 31

3 الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي – يوسف خليفة – مكتبة غرب القاهرة

4 ينظر: الحيوان 74/1: العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف. ص 38 والشعراء الصعاليك، ص 11، دراسات في الشعر الجاهلي، احشروم و اسليم، ص 25: الشعر الجاهلي: قضاياها الفنية و الموسوعية، ص 265 وما بعدها. ونقل السيوطي في (المزهر)، وتلعب في (مجالسه)، عن الأصمعي، أن في الجاهلية شعراً يبعد عن الإسلام أربعمئة سنة، ينظر: المزهر 477/2، و: مجالس ثعلب 412/2، و: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،

وكان العرب في جزيرتهم قسمين: أها وير وأهل مدر. فأما أهل المدر فهم أهل المناطق التي كانت تتوفر فيها سبل العيش المستقر الدائم، وعلى رأسها توفر الماء من أي مصدر كان، كالأمطار أو الآبار: إذ تستقر المجتمعات الإنسانية حول منابع المياه، فيمارس أهلها الزراعة أو الرعي، ويبتلون المنازل، وتقوم عندهم الأسواق والتجارات، لترويج ما ينتجون وجلب ما يحتاجون. وقد كانت أطراف الجزيرة مثل هذا النمط من العيش والاستقرار فالحجاز وفخامة واليمن وهجر وشمال متحد (القصيم) مناطق خصبة ذات أمطار، أما مسان والبحرين وكازمة فمناطق ساحلية تتوفر لها أسباب التجارة مع الأمم الأخرى، وأما بوادي الشام والعراق فيها الأقمار المعروفة .

وأما أهل الوبر قهم من خالف هؤلاء وسك داخل الجزيرة لا في أطرافها، حيث الصحاري والخيال والقحط والجذب، وما يعنيه ذلك من دوام الارتحال طلباً للكلا ونحو ذلك، وإن كانت الرحلة أحياناً لا تعني التنقل الدائم لارتباطها بمواطن المياه، فإذا استمر الماء سنين لم يرتحل أهله عنه، كما أن بعض القبائل كانت ترحل مرتين في العام في إطار جغرافي محدد؛ إذ كانت لها منازل في الصيف وأخرى في الشتاء، تسميها (الجمي).

وما بهم بحثنا من الوضع الاجتماعي لعرب شبه الجزيرة في الجاهلية هو الإشارة إلى انقسام المجتمع إلى وحدات اجتماعية متعددة، تُسمى كلٌ واحدة منها (قبيلة)، وقد نزلت هذه القبائل في أماكن اختارتها فتوطنت فيها، وكانت كل قبيلة بمنزلة أسرة كبيرة ينتمي إليها أفرادها أكثر من انتمائهم إلى آبائهم المباشرين. وتتكون القبيلة من رئيس ووجهاء وأفراد، كتكون الأسرة من جد وأعمام وأحفاد، ولكل فرد مهام محددة ضمن رباط الأسرة أو القبيلة¹

ولما كان الوجود الإنساني البشري في أغلب البقاع المأهولة في شبه الجزيرة العربية - ولا سيما بواديهما- يقوم على معاركة الطبيعة وظروف العيش القاسية، كان عدد الأفراد في الأسرة أو القبيلة عماد الوجود والاستمرار، سواء في ذلك البقاء للبقاء قواته -تعني العمل والإنتاج والرعي والصيد...-، و البقاء لعدم الفناء من قتل أو غارة أو غزوة؛ فكانت كثرة الأفراد من حيث العدد أمراً مهماً لاستمرار القبيلة وضمان بقائها

فالوعي الجاهلي تشكله العصبية القبلية، كما تشكل هذه العصبية نفسها هوية المجتمع الجاهلي وهوية الفرد الجاهلي وهوية الفرد الجاهلي، وتُعد محور التوازن الروحي والأخلاقي في القبلية (للذات الفردية / القبلية) في صراعها مع (الأخر) من القبائل

ص 68 . غير أن ما كان في هذه الفترة لم يُحفظ. ولم يوجد بين أيدي الباحثين فيدرسوه وقصدنا الموجود المدروس وهو ما كان قبل الإسلام ينحو مئة وخمسين عاماً

1 ينظر لأهل الوبر والمدر، والانتماء إلى القبائل: الشعر الجاهلية خصائصه وفنونه، ص 38، و 57 و قضايا الشعر الجاهلي، ص 357 وما بعدها، و: الموالى و نظام الولاء، من 14-15، و الانتماء في الشعر الجاهلي، م ص 198 و 241 ، و مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص 31 و: بيانات الشعر الجاهلي، ص 16 وه بعدها، و: الوطن في الشعر العربي، د. طنوس، ص 325-326 و : و الوطن في الشعر العربي القديم - د. ثائر زين الدين ص 76 وليس من هدف بحثنا التوسع في أسباب نشأة القبائل، ولا في السؤال: من أين جاءت؟ ولا في غلبة قبيلة على أخرى في مكان أو آخر، فالصلعة ظاهرة اجتماعية نشأت في وقت متأخر من عمر القبائل؟ إذ كانت في أواخر زمن الجاهلية، في وقت عُرفت فيه منازل له القبائل ومقادير قوتها سياسياً واقتصادياً وحرماً واجتماعياً .

الأخرى من جهة، ومع قسوة الحياة المعيشة من جهة أخرى لأجل الماء والكلأ، وغدت هذه العصبية حاميا لبقاء القبيلة، فبقاء القبيلة بقاء للمجموع المكون من أفراد¹

وكان من شأن المجتمع الجاهلي هذا أن من يقوم بجناية ما في القبيلة يخالف بها قانونها أو العرف الاجتماعي بين القبائل فإنه يجازى بأن تخلعه القبيلة، فتنزّل عن كاهلها عبء حمايته أو الحفاظ عليه بينها، أو المخاطرة بأفراد آخرين من القبيلة في سبيل ردم ما فعل أو في سبيل معاقبة أصحاب الحق الموتورين له، فتخلعه عنها ليغدو دون انتساب إلى قبيلة، وقد يجد قبيلة أخرى تتولاه وتجيره وقد لا يجد. غير أن طلب الجوار كان دلالة على الحاجة إلى الآخرين لتوفير الحماية والطعام، فكان منقصة وعارا بدرجة من الدرجات؛ إذ إنه يعني أن الفرد لا يستطيع حماية نفسه أو إطعامها فيلجأ إلى غيره ليحميه ويطعمه. ومن هنا نجد أن من كان في نفسه أنفة وعزة بالعتان لا يلجأ إلى الجوار؛ إذ يرى فيه منقصة، ويستقل بنفسه يحميها ويدبر أمرها دون الحاجة إلى أحد، وكذا كان الصعاليك²، فكانت حيالهم في الصلعة امتدادا لما قبلها.

ولأجل فكرة العصبية القبلية هذه، وتمحور الأفراد حول مفهوم الجماعة، كان تكوين البنية الاجتماعية للمجتمع الجاهلي مسؤولا عن انبثاق إشكالية (الأنا { الأخر) فيه بشكل واضح وقوي، وبشكل معقد على الصعيد الاجتماعي والإنساني؛ إذ إنه ((المسؤول عن وجود هذه الإشكالية التي تنسم بذويان الذات الفردية في الذات الجماعية))³. إن هذا الذوبان هو المعضلة الإنسانية الأبرز في المجتمع الجاهلي؛ لأنه كان يشكل الدافع للصراع بين (الذات)

والآخر) في المجتمع، بين الداخل الإنساني والخارج الاجتماعي، وإن كان الخارج بسطوته قد فرض حضوره بشكل واضح على الذات الفردية، فكانت كل مظاهر الحياة الجاهلية تعبر عن علاقات المجتمع، أو تنطق بلسانه.

1 ينظر: صورة الآخر في الشعر العربي، ص 14، و: الآخر في الثقافة العربية، ص 9

2 - في شرح ابن السكيت لشعر ربوة أن عروة ((عاب على نفسه الاستمارة في الأحياء لطلب الكلأ))، شعر المروة، فنس 65-66. وينظر لهذا المعنى: الشعراء الصعاليك، ص 98، و: جدلية القيم في الشعر الجاهلي، في 74، الموالى و نظام الولاء، ص 49. وقد وافق فعاليات الجاهلية من جاء بعدهم من اللصوص، وعلى ذلك شراهد معروفة، منها قول الأحمير السعدي وهو صعلوك إسلامي في هذا المعنى

والى لأستحيي من الله أن أرى أجزز حية ليس فيه يعير

وقول بكر بن النطاح - وهو صعلوك عباسي (-5192)

ومن يفتقر منا يعيش بجسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

ينظر: الأغاني 107/19، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص: 304 و: شعر الصعاليك، 337.

3 حال الأنا والآخر في الشعر الجاهلي، ص 94.

المبحث الثاني: إشكالية (الأنا والآخر) في المجتمع الجاهلي:

تنظر الدراسات الأنثروبولوجية إلى الإنسان على أنه أحد صنفين¹: فهو فرد أو كائن بشري ذو وجود مادي فيزيولوجي، وهو من ناحية أخرى شخص أو عضو في مجتمع، أو هو (أنا) لها علاقاتها وطرق تصرفها وتعاملها مع الآخرين، فهو من هذه الناحية ((مجموعة من العلاقات الاجتماعية))²، ولا اعتبار لوجوده منفردا، وإنما هو ((جملة من الأحوال النفسية، تقوم وحدتها... على تداخل أحوالها))³. فالإنسان بهذا التصنيف وحدة في البناء الاجتماعي المحيط به، ولا تمكن دراسة المحيط من دون دراسة مكوناته، فلكي ندرس المجتمع الجاهلي علينا استقراء أفرادها، ويهمننا منهم هنا (الصعاليك).

ولثنائية (الأنا / الآخر) في المجتمع الجاهلي خصوصية واضحة وعميقة في الآن نفسه؛ لارتباطها بتركيبية المجتمع الجاهلي القائمة على العصبية القبلية المؤسسة على الانتماء القبلي وما ينتج عنه من العادات والقيم والتقاليد، وتمثيل القبيلة الجاهلية نموذج (الذات التشاركية). وهذه البنية للمجتمع الجاهلي هي المسبب لإشكالية ذويان الذات الفردية في الذات الجماعية القبلية، وقد تظهر الذات الفردية في بعض الأحيان، لكنها تبقى فردية القبيلة، لا فردية الفرد⁴. إن دوران الأفراد حول القبيلة والانتماء إليها هو ما جعلهم يماهون ذواتهم في القبيلة، فإذا القبيلة هم، وإذا هم هي، يغوون لغوايتها ويرشدون لرشدها، ولا يسألون أحاهم حين يندم برهانا، وإذا في شعرهم كثير من الفخر الجماعي والاعتداد بالنسب والبطولة، وبالقيم الجماعية.

وفي ضوء هذه الإشكالية وخصوصيتها ومركزية ما تستند إليه في المجتمع الجاهلي، قسم بعض الباحثين الشعراء الجاهليين إلى مذاهب استنادا إلى قربهم أو بعدهم من ذواتهم وذات القبيلة؛ إذ إن الشعر الجاهلي هو ممارسة جمالية انبثقت من رؤية العرب لعالمهم، وطريقتهم في فهمه وتقييمه⁵، وهذه المذاهب هي: المذهب القبلي، والمذهب الفردي، والمذهب الموهل في الفردية. فأصحاب المذهب الأول (القبليون) تكون ذواتهم مرتبطة بالقبيلة، وهؤلاء تغيب عندهم (الذات الشاعرة) عن ذاقا واتجاهاتها الشخصية، وأصبحت تعبر عن (ذات القبيلة) ورغباتها، فتحطمت عندهم ثنائية الأنا/ الآخر) بتحول (الأنا) إلى (الآخر) تماما⁶.

وأصحاب المذهب الثاني متفردون، غلبت قضاياهم الشخصية وهمومهم على هموم المجتمع والقبيلة، وكانوا يصدرن في أشعارهم عن ذواتهم، التي هي إثبات للوجود الشخصي، غير أن هذه الذاتية خضعت لعقد اجتماعي بين الشاعر والقبيلة،

1 مر هذه الفكرة انقسام علم الأنثروبولوجيا نفسه قسمين: أنثروبولوجيا طبيعية، وثقافية اجتماعية.

2 جدل الأنا والآخر في الشعر الجاهلي، ص 91.

3 - معجم الأنا، ص 74-75.

4 ينظر: جدل الأنا والآخر في الشعر الجاهلي، ص 44، وحال العصبية القبلية والقيم، بو جمعة بو بعيو، حس 10، وصورة الآخر في الشعر العربي، ص 9.

5 ينظر: جماليات الشعر العربي، ص 11.

6 ينظر: جدل الأنا والآخر في الشعر الجاهلي ص 95: جدل العصبية القبلية، ص 9: صورة الآخر في الشعر العربي ص 9.

تحول فيما بعد إلى عقد في؛ إذ يلتزم الشعراء في قصائدهم فجاً فنياً له أبعاد اجتماعية قبلية، يعكس مشاعر القبيلة وتطلعاتها قبل أن يعبر عن مشاعر الذات الفردية واتجاهاتها الشخصية¹.

أما أصحاب المذهب الثالث فهم الذين بالغوا في تأكيد الفردية بالخروج عن² النظام القبلي من حيث الشكل والمضمون، وذلك نتيجة الانتقال من الوعي العصبي إلى الوعي الإنساني³، كالشعراء الصعاليك الذين خرجوا عن قيم المجتمع القبلي، ثم خرجوا بفهم عن في ذلك المجتمع، وكانت مفارقتهم للنسيج الفني الاجتماعي في هذا الجانب واضحة ومشهورة⁴

وقد كان الشعراء الصعاليك أكثر وعياً للوجود الإنساني ولكنه الذات الإنسانية من غيرهم⁵، وكان ثمة جدل بين العصبية القبلية القائمة على الدم والوعي الفردية الإنساني لديهم، الذي يحمل مضموناً أخلاقياً، جعل - أي الجدل - أنفسهم أكثر حساسية في نشدان المثل الأعلى للقيم في المجتمع الجاهلي⁶.

ولذا كان البعد القيمي هي الأبرز في رؤيتهم أنفسهم والمجتمع وباقي أفراد القبيلة الارتباط القيم نفسها بدواخل التنفس الإنسانية ومتطلباتها الحياتية. إن ادعاء القبيلة - ممثلة في وعمالها- تيم الكرم والجود والسخاء و الحماية دون التنفيذ الفعلي له، والتميز بين الأفراد الشرفاء والسادة وغيرهم من أبناء القبيلة، وانتفاحي بعضهم للونه - وإن كان ابامرا للقبيلة) - يعد في نظرهم إخلالاً بالميثاق القبلي بين القبيلة وأفرادها، فلم يكن في أصل التواضع الإنساني أن يلام الإنسان على قوته أو شكله أو عاهة أصابته لا بد له فيها، ثم جاء المتعصبون لجنسهم أو لعرقهم من مادة القبيلة وهم أقل وعياً إنسانياً من الفعاليات - ليقرروا الخلط بين العبد الأسود الذي يشترونه وبين ابنهم التصريح الذي يخالفهم في اللون الا في الدم، فينال ما ينال العديد من الامتهان والتفريع والترفع عليه، وهذا ظلم غير مقبول في منطق إنسانيتهم.

أسس هذا الافتراق الشكلي أو القتي". ونستطيع القول: إن هذا الافتراق قائم على محور القيم التي سبقت الإشارة إليها، وتعني مقدار الالتزام بهذه القيم أو عدمه، و التسببية في النظر إلى هذه القيمة أو تلك، والانتقائية في بعض القيم دون غيرها، ونحو ذلك.

- 1 ينظر: دراسات في الشعر الجاهلي، د. يوسف خليف، ص 174-175 و: جدل العصبية القبلية والقيم ص5، و: جدل الأنا والآخر في الشعر الجاهلي، ص 95 و: مقالات في شعر الجاهلية وصدر الإسلام، ص8 و: الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية، ص 7 وما بعدها
- 2 خرج عنه: خالفه في الرأي، وعليه: حاربه
- 3 ينظر: جدل الأنا والآخر في الشعر الجاهلي ص95: جدل العصبية القبلية، ص9: صورة الآخر في الشعر العربي ص9
- 4 نشير هنا إلى كلام الدارسين على خصائص شعر الفعاليات و امتياز عن تحمل شعر الجاهليين؛ إذ ك ان يتسم بأن أغذيه شعر مقطعات لا مطولات، وبأنه لا مقدمات قبلية فيه، وبأنه يتسم بالواقعية في مضمونه و تصويره للحياة. ينظر: الشعراء الصعاليك، ص299، و: شعر الصعاليك، ص 309 وما بعدها، و: شعر الهذليين، ص 177- 179 و250 الأدب الجاهلي، والاشقر ص231 والاصول الفنية للشعر الجاهلي ص359
- 5 ينظر: الانتماء في الشعر الجاهلي، ص 338، وقد زادهم تحارب التصعلك و حياة التشرذ عمقا في الوعي الإنساني
- 6 تعني هنا الحناء، مثلا فأبأؤهم في القبيلة، والأصل أن ينسبوا إلي آبائهم ولا يشوهم نسب امهاتهم غير أن البعض كان ينظر إليهم بشيء من الانتقاص لأصولهم، ولا... التي ورثوها من أماتهم

المبحث الثالث: موافقة الآخر (الانتماء إلى القبيلة)

فقد بعض الصعاليك انتماءهم إلى قبائلهم، وتحلوا من روابط المجتمع و عُرَاه، ولم يبق لهم ما يربطهم به غير المنفعة¹، بل إن بعضهم بدأ يسلك مسالك عدائية واضحة تجاه قومه فيجمع رفاقه من الشماغ و الفتاك فيعير على قومه (السابقين)، كابن الحدادية وحاجز الأزدي والشتفري². غير أن هذه القاعدة لا تطرد على إطلاقها؛ إذ إن بعض الصعاليك لم يفعل ذلك كالسليك³، وعروة بن الورد الذي لم يخرج من قومه أصلاً⁴، وتأبط شراً الذي كان وثيق الارتباط بقبيلته (فهم)⁵، و إنما مرد هذا الخروج أو البقاء هو محور القيم التي جرى الخلاف عليها، فإذا ما وافقت فيه القبيلة ما يؤمن به الصعلوك وافقها وسرق في وكاكا، وإن خالفها خالفها وخرج عنها.

وفي شعر الصعاليك أمثلة واضحة على امتزاج (ذات الصعلوك ب (آخره / القبيلة) امتزاجاً مطلقاً لا يبدو معه أبداً أن ثمة (ذاتين)؛ فهما ذات واحدة هي القبيلة، وآخرها في هذه الحال - قبيلة أخرى وليس الصعاليك⁶، وهنا تمحي الذوات الفردية لصالح الجماعة، وفي دائرة الانتماء الاجتماعي هذه يتحقق مع الذات ((وجودها من خلال الآخر... ويظهر الانتماء القبلي ليس مجرد ضرورة بقاء، ولكنه مثل معي وقيمة للبقاء، وإطاراً معنوياً للشخصية الفردية يتجسم في العرض و الكرامة)⁷. والصعاليك في هذا الإطار يمثلون القبيلة وينتمون إليها، وموقفهم منها القبول والموافقة، لوجود توافق بين قيم الفرد والجماعة⁸

وتساوي هنا (الأنا) مع (الجماعة) في خدمة المصلحة العامة؛ ف (الأنا) تُندَرُ نفسها لخدمة (الجماعة)، كما تقوم (الجماعة) بحماية (الأنا) حيث الحاجة، في ظل التوافق الاجتماعي القبلي المعروف. فهذا صخر الغي يذكر نصرة قومه له إن استنجد هم بقوله لأبي المثلث :

وحفض عليك القول، واعلم بأنني من الأئس الطاحي الحلول العرمرم

1 ينظر: شعر الصعاليك، يوسف خليفة - مكتبة غرب القاهرة، ص51

2 ينظر الشعراء الصعاليك، ص117 وشرح ديوان الشنفري، ص29 وما بعدهاء وحير إمارة اب الحدادية على قومه في: الأخالي 14/145، وفي عشرة شعراء مقلون، ص31. والشاذ: المنفرد والناذر عن جماعته، و: قوم شذاذ: إذا لم يكونوا في منازلهم لا في حبيهم، ينظر: لسان العرب، مادة (شاذة).

3 ينظر الشعراء الصعاليك، ص117 و: الشعر وأيام العرب ص40

4 ينظر: العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ص67

5 - ينظر: ديوان تأبط شرا وأخباره. ص ٢٠

6 لأن الصعلوك هنا ورد في قبيلته، فتثائية المعدل والقبيلة م تك قائمة بعدا. واما تنسائية القبيلة والقبيلة الأخرى في المسراع الثقليبه تي بين قبائل الجاهلية

7 جدل الأنا والآخر في الشعر الجاهلي ص98

8 ينظر: النفس في الشعر الجاهلي ص61

أبت لي عمرو أن أضام، ومازن وقرد ولحيان وسهم، فسلم¹

ويقول له في موطن آخر :

أبا المثلث، إني غير مهتضم إذا دعوت تميما سألت المسلم²

وكذا يفعل حيدر بن ضبيعة البكري، فيذكر نصره قومه بقوله:

دعوت بن قيس إلى، فشمريت خناذيد من سعد طوال السواعد

إذا ما قلوب القوم طارت مخافة من الموت أرسوا بالنفوس الموحد³

وقد أخذ موقف الموافقة للقبيلة، وامتزاج الصعاليك بها، أنماطاً مختلفة من التعامل بين الفريقين، نذكر منها:

1) الفخر بالذات الفردية في إطار القبيلة، والفخر بالقبيلة :

يعد الفخر الذاتي من أكثر الأعراض اشتراكاً بين الشعراء، وهو حاجة إنسانية في النفس يدفع إليها الشعور بتحقيق (الأنبا)، والرغبة في إظهارها ونشرها، وسحق (الأخر) وتقزيمه في بعض المواضيع. ويفضل الشعراء عامة التام في هذه المسألة بامتلاكهم موهبة الشعر التي يستطيعون ما التعبير عن هذه الحاجة بشكل أفضل، وطريقة أحواد، لذا يمكن القول: إن الشاعرية نفسها مصادر للشعور بالفخر عند الشعراء، وباعت على القول بالفخر شعراً⁴.

وقد كان للصعاليك الشعراء فخر داني بأنفسهم، غير أنه لا يخرج من دائرة القبيلة؛ ذلك أن الفخر الذاتي بالنفس والآباء والأجداد قد يبدو فرداً محضاً، إلا أن الفرد في حقيقة الأمر - امتداد لسلسلة متجذرة في القبيلة،

1 - شرح أشعار الهذليين 1/266، و: هو ان الهذليين 2/225 الأئس: الحي الطاحي: المتسع، المنتشر- العرمم: الشديد، أو الكثير الحلول: الناس الحالون في المكان، عمرو ومازن وقرد ولحيان وسهم: قبائل من هذيل. سلم: أي: بالأمر، ولا تُتأزَع فيه. وفي (ديوان الهذليين): ((وفهم)، بدل ((وسهم))، وكذا روى عنه صاحب (شعر هلالين)، ص 149، وهو غير صواب، ولعله تصحيف من إحدى نسخ (ديوان الهذليين): لان (فهما) ليست من هذيل، وإنما هي من قيس عيلان بن مضر، وتلتقي مع هذيل من مدركة بن إلياس بن مضر في هذا الجد

2 - شرح أشعار الهذليين 1/269 و ديوان الهذليين 2/228 مهتضم: مستندل، ثميم: ثميم بن سعد بن هذيل بطن من هذيل وليست ثميم بن مر بن أة بن طلحة بن إلياس بن مضر، القبيلة المعروفة المسمل جمع مسل وهو مسيل الماء

3 شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص 269، خناذيد: ج حديد، من فعل ممت هو (خند)، وأصله: الفحل من احيل، واستعيرها الكرام الرجال. طوال السواعد كناية عن طولهم. وكناية عن شدة ضرهم في الحرب، فمن كانت يده طويلة كانت أشد ضرباً أرسوا: شنوا ومفعوله محذوف، و تقدير الكلام قلوبهم بالنفوس الكريمة. المواجيد ج ماجساد، وأسلمه للكثرة

و البيتان في . شرح حماسة أبي شمام، للأعلم 1/199 ونسبهما ما فيه إلى بعض بني قيس بن ثعلبة. وفي شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، 1/498 - 499 وتسهما فيه إلى بعت من فقّس

4 ينظر: شعر الصعاليك، ص 319.

5 إذا عُدى الفعل (خرج) بـ (من) كان لمعني الخروج من المكان، حقيقة أو مجازياً.

أي أن الشاعر ((يعكس من خلال تغنيه بذاته كثيرا من المظاهر الاجتماعية السائدة، وينقل بذلك إحساس الجماعة من خلال هذه الذاتية¹)). ومثل هذا الفخر ينطلق من الذات الفردية ليحبط ما حولها من نوات لها صلة قري بالشاعري فيتنامي الإحساس الفردي ليصل إلى إحساس جماعي بهذا الفعل أو هذه القيمة، والشاعر حينما ينزع إلى الفخر بنفسه ((فإن فخره في الغالب يكون صدي عصبية²)). وما يجعل الشاعر يفعل ذلك هو الميل الفطري إلى إظهار نجاحه في الارتباط بأواصر القبيلة، وتقوية الإحساس بالانتماء إلى القبلة، بل والشعور بتحقيق الذات؛ إذ إن أواصر القرابة الممثلة في الآباء والأجداد تحمل الشاعر يعيش إحساسنا شديدا بتلك الصلة الوثيقة بينه وبين هؤلاء الذين يمثلون الأهل والعشيرة³، فالغاية من هذا الفخر قبلية وإن كانت الوسيلة فردية، وقد أخذ الصعاليك حقهم منه قليلا أو كثيرا.

فهذا مالك بن حريم يفخر بشجاعته في نصرته قومه والذود عن نسائهم لما دهمهم خطب، فادعي الفرسان وهزت الخيول، فإذا به يتقلب حية فاتكة تنقض على الفرسان المغيرين، فعمل سمها فيهم سيفا يفلي رؤوس الأعداء. يقول مالك :

يا عمرو أو أبصرتني	لفوتني في الخيل رقوا
تلقيت مني عربدا	يقطوا على الفرسان قطوا
لما رأيت نساءنا	يدخلن تحت البيت حبوا
وسمعت زجر الخيال في	جوف الظلام: هبي، وهبوا
في فيلق ملمومة	تسطو على النجدات سطوا
أقبلت أفلي بالحسا	م معا رؤوس القوم فلوا
والبيض تلمع بيننا	تعصو بها الفرسان عصوا ⁴

ونري في البيت الأخير فخرا جماعيا بفرسان القبيلة قادت إليه (الأنا) في ستة أبيات مسابقة؛ لأن بطولة (الأنا) هذه موجهة لخدمة القبيلة وتصرنها، مع الاحتفاظ بالحق الشخصي الفردي في هذا الفخر، وهذه الأعمال .

1 جدلية القيم في الشعر الجاهلي ص55

2 الشعر وأيام العرب، ص ٢٣٩

3 ينظر: جدلية القيم في الشعر الجاهلي، في ده، و: جدل العصبية القبلية والقيم، ص 5 و9

4 مالك بن حريم الهمداني حياته وما تبقى من شعره، ص ١٧٣، و: ديوان اللصوص 2/139 رفررتي اقسام برافو سكه من الرعب. وكان معني البيت أن ذلك الموقف في الحرب يحيل للرالي فيه أن الأبطال في حالة قرن ونعم، طول انتقال العريد: الحية الخفيفة التيلة، وهي أحسن الخاتم فضة. القطر: نقازية أخطر من النشاط و اخمة. هي، وترا: من حر الخيل، أنه: تو منعي وتباحدي. الفيلق: الكتبية العظيمة الملمومة: المجتمع الكثيفة النجدات: المشده اند. اقلي: ولي المرأة بالسيف، فنيا وعنوان همسر به وقمعه. البيض السيوف. تعصر: خصما بالسيف نشوان أحنة أحمد العصا فضربه به وفي ديوان اللصوص 13

أما **الفخر القبلي** فهو من أقوى أشكال تعبير (الأنا) عن موافقة الآخر القبلية وقبوله؛ إذ إنه من الأغراض الشعرية التي يتجلى فيها بوضوح الإحساس العصبي بالانتماء إلى القبيلة، والتعصب لها¹، والإشادة بالقيم الجماعية التي مثلها. كما يظهر فيه ارتباط الفرد بالقبيلة بشكل قوي، فتبدو القبيلة هنا مساوية لنفس الفرد، أو ذاته، ويغدو حديثه عنها كحديثه عن نفسه، وفخره بما كذلك ورغم أن فخر الصعاليك بأقوامهم، أو بلسان أقوامهم، لم يكن أمراً مألوفاً في شعرهم²، تجد بعض أشعارهم جاءت من هذا القبيل، تحاور فيها (الذات الشاعرة الآخر عبر تأكيد الهوية القبلية³)؛ إذ إن طبيعة المجتمع الجاهلي تستلزم قوة قادرة على كسب العيش للاستمرار، وعلى حماية القبيلة متن يغير عليها يريد بما شاء والحوار هنا يتصف (بالإيجاز وموافقة "الجماعة" ترى "سيد القبيلة"⁴). وقد كان بعض الصعاليك في قبائلهم، تستجلب هم النصر، ويكونون ركائز في معاركها، كعروة بن الورد، وما لله بن حريم، وحذر من ضيعة البكري⁵.

فهذا تأبط شرا الفهم يفخر بقبيل قم وعنوان، ابني عمرو بن قيس بن عيلان، فيذكرهما را حسا؛ إذ يقول فيهما :

فهم و وعدوان قوة إن لقيتهم خير البرية عند كل مصبح

لا يفشلون، ولا تطيش رماحهم أهال لغر قصائدي وتمدحي⁶

وكان تأبط شرا من الصعاليك الذين لم ينخلعوا عن أقوامهم، فقد كان قائماً في قيمهم، لم يغادرها، ولا يخلو شعره من ذكر خروجه منها أو إياها⁷ ويفخر حاجز الأزدي يكره قومه وشجاعتهم، وحيث يذلات مؤخراً، فيقول مخاطباً امرأة

سلي عني إذا اغيرت جمادى وكان طعام ضيفهم الثماما

ألسنا عصمة الأضياف حتى يُضحى مالهم نقلاً ثواما

الخاتمة: -

حاول هذا البحث أن يتناول صورة الآخر عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي حيث ظهر في المقدمة الحديث عن الآخر عند الشاعر الجاهلي بصورة مختصرة وجاء بالتمهيد تعريف لظاهرة التصعلك وأشهر شعراء الصعاليك وجاء في المبحث الأول الحديث عن الصعاليك بين العصر والمجتمع فعرض للعصر الجاهلي، وإشكالية الأنا والآخر في المجتمع الجاهلي، وجاء الحديث في المبحث الثاني عن إشكالية الأنا والآخر في المجتمع الجاهلي، وجاء الحديث في المبحث الثالث عن موافقة الآخر

1 ينظر: جدلية القيم في الشعر الجاهلي، ص 63

2 ينظر شعراء الصعاليك، ص 173

3 دراسات في الشهر الجاهلي ص 98

4 دراسات في الشعر الجاهلي، الحشروم واسليم ص 92

5 ينظر: شعر الصعاليك د. حفني ص 320

6 ديوانه تأبط شرا و أخساره، مس، فهم: فيوه تا شرا- وعدوان: هو عمره فيمن عيان، وله به فهما عم قال فيي خيلان بن مشر بي تدار بي مبعث

7 ينظر: ديوان نابط شراً وأخباره، ص 20

وقد مثل هذا الموقف الانتماء القبلي لدى الشعراء الصعاليك، ومواقف القبيلة في أشكال الانتماء منها، الفخر القبلي، والفخر بالنفس في إطار القبيلة، أو المشاركة في حماية القبيلة وغزواتها.

نتائج البحث:-

- 1- أن الصعلكة أخذت شكلاً إيجابياً رغم أنها قامت على السلب والنهب، لأن المقصد من هذا الفعل كان يرمي إلى إطعام الفقراء من أموال الأغنياء وكأنهم يؤكدون أن للفقير حقا في مال الغني.
- 2- عرف عن هؤلاء الصعاليك اعتزازهم بأنفسهم وهذا الاعتزاز نابع من مدى قناعتهم بالفعل الذي يقومون به.
- 3- تبين لنا أن الفخر الذاتي من أكثر الأعراض اشتراكا بين الشعراء الصعاليك.
- 4- اتضح لنا ارتباط القرد بالقبيلة بشكل قوي، فتبدو القبيلة هنا مساوية لنفس الفرد، أو ذاته، ويغدو حديثه عنها كحديثه عن نفسه، وفخره.

المصادر والمراجع:-

1. قدرة، د. غيثاء (2013م). لغة الجسد في اشعار الصعاليك، سلسلة الدراسات (1).
2. الأصفهاني، أبو الفرج (1952م). كتاب الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة الطبعة 1371هـ.
3. خليفة، يوسف (د.ت). الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، مكتبة غرب القاهرة.
4. ابن منظور (2003). لسان العرب، الدار العلمية للكتاب الطبعة الأولى، بيروت لبنان.
5. فرحات، د. يوسف (2004م). ديوان الصعاليك، شرحه الدكتور يوسف شكري فرحات، وصدر عن دار الجيل، بيروت.
6. شاکر، علي (1984) ديوان تأبط شراً وأخباره، المؤلف: ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثل، المحقق: علي ذو الفقار شاکر، الناشر: دار الغرب الإسلامي.
7. القيسي، نوري (2015). دراسات في الشعر الجاهلي، جامعة بغداد.
8. طريفي، د. محمد (د.ت). ديوان اللصوص، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
9. بو بعيو، بو جمعة (2015). جدلية القيم في الشعر الجاهلي، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع.
10. عبد الرحمن، عفيف (1984). الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، دار الاندلس للطباعة والنشر.
11. يعقوب، إميل (1996). ديوان الشنفرى وديوان السليك بن السلركة، الشنفرى ثابت بن أوس الأزدي، جمعه وحققه وشرحه، إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت.
12. أسليم، فاروق (1998) الانتماء في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v3.31.6